زياد بن أبيه

" وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة.. فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاىً"

زياد بن أبيه

obeikandl.com

obeikandl.com

لكى نعرف دور زياد بن أبيه، أو زياد بن أبى سفيان تعود حين أعترف به، لخدماته الجليلة له معاوية بن أبى سفيان، أول خلفاء بنى أمية والذى آل إليه الحكم بعد استشهاد الإمام على بن أبى طالب، وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية.

ويرجع الاقتسام فى الأمة الإسلامية عند بداية الفتنة الكبرى، والثورة ضد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان تلك الثورة التى أطاحت به، وانتهت باستشهاده..وهى فترة قاسية من فترات التاريخ الإسلامى، فقد كان لعثمان – رضى الله عنه – فضل كبير فى خدمة الإسلام، سواء بالتبرع الجزيل بأمواله من أجل الإسلام، بجانب أنه تزوج من ابنتى رسول الله ﷺ وسلم رقية، ثم أم كلثوم بعد وفاة رقية.

وقام بأعمال جليلة عندما تولى الخلافة، سواء بالفتوحات الإسلامية التى حدثت فى عهده، أو بموافقته على إنشاء أول أسطور إسلامى استطاع أن يهزم الأسطول البيزنطى فى معركة ذات الصوارى فالرجل له تاريخ وسجل عظيم، وقدم الكثير فى سبيل نشر دعوة الإسلام، فقد كان شديد الثراء، ورث ذلك عن والده الذى كان تاجرا ثريا وناجحا، وقد أسلم عثمان رضى الله عنه بمجرد أن سمع عن الدعوة الإسلامية من أبى بكر الصديق، وكان من الذين هاجروا الى الحبشة مع زوجته رقيه بنت رسول الله ﷺ، وعاد من الحبشة قبل موقعة بدر، ولم يشهدها لأنه كان يسهر على مرض زوجته رقيه التى لحقت بالرفيق الأعلى.

وقد تبرع بكثير من ماله لجيش العسرة، واشترى بثروته بئرا حتى يسقى منها المسلمين، اشتراها من رجل يهودى بعشرين ألف درهم وجعلها للمسلمين.

وقد روى عن أبى سعيد الخدرى قوله:

رمقت رسول الله ﷺ من أول الليل إلى أن طلع الفجر يدعو لعثمان بن عفان، يقول: «اللهم إنى رضيت عنه فارض عنه».

وتولى الخلافة بعد عمر بن الخطاب (١٠ من المحرم سنة ٢٤ هـ) بعد دفن عمر بثلاثة أيام، وتمت فى عهده إنجازات كبيرة، وفتوحات شملت الإسكندرية، والشمال الأفريقى وقبرص، وسواحل الروم وطبرستان وسجستان..وغير ذلك من الأراضى التى أصبحت فى حوزة المسلمين.

ولكن كل هذه الأمور لم تشفع له عندما قامت الفتنة، وقتله الثوار بلا جريرة، بحجة أنه يولى السلطة بعض أقاربه، وكانت نتيجة هذه الفتنة أن استشهد عثمان رضى الله عنه، وتولى الخلافة على بن أبى طالب، وعزل الإمام الولاة ليولى بدل منهم من يثق فيهم، وكان من بين هؤلاء الذين عزلهم الأمام (معاوية بن أبى سفيان) الذى رفض هذا الأمر بحجة أنه يريد الثأر من دم عثمان رضى الله عنه، وكان لابد أن يقوم صراع بينه وبين الإمام، كان معاوية قد حكم الشام لأكثر من خمسة عشر عاما، فأحبه الناس، وصاروا يأتمرون بأمره، وأصبحوا كالخاتم فى يده، ومن هنا فقد كان حاكما قويا.

وبعد معارك طويلة، وصراعات سياسية، انتهى الأمر باستشهاد الإمام على يد أحد الخوارج عبد الرحمن بن ملجم، ثم تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وبذلك استتب الأمر لأول خليفة للأمويين معاوية بن أبى سفيان، ونقل مقر الخلافة إلى دمشق، وظلت دمشق عاصمة الخلافة الأموية طيلة تسع وثمانين سنة.

وبذكاء معاوية وقدرته الإدارية قسم الخلافة الإسلامية إلى خمس ولايات حتى يمكنه إحكام سيطرته عليها.

ولاية العراق وتشمل الشام وشرق البلاد العربية، وقد وضعت تحت إشراف وال يختاره وتكون عاصمة هذا الإقليم الكوفة.

وأدمجت الحجاز واليمن وجنوب البلاد العربية فى ولاية واحدة، وشملت ولاية أرمينيا إقليم الجزيرة فيما بين نهرى دجلة والفرات، كما أصبحت كل من مصر وشمال أفريقيا وغرب شرق فارس فى ولاية واحدة.

وكان والى الإمام على – كرم الله وجهه – على فارس هو زياد بن أبيه، فاستدعاه معاوية إلى دمشق، وأغدق عليه الكثير من المال، وألحقه بنسب أبيه، فقد كان ابنا غير شرعى لأبى سفيان بن حرب، ثم ولاه ولاية الإمبراطورية الشرقية بكاملها!

وبدأ نجم زياد فى السطوع، فكون شرطة قمعية، كثيرة العدد، وبدأ يحكم بالحديد والنار، غير عابئ بشيء إلا أن يذعن الجميع لسلطان الدولة الأموية، وبذل أقصى ما يمكن من

البطش فى تعقب الشيعة المناصرين للحسين بن على، واستطاع بالفعل أن يبسط نفوذ الخلافة الأموية على الأقاليم الشرقية كلها.

وبدأ معاوية بعد أن اطمأن إلى سيطرته على الجبهة الداخلية أن يعيد عهد الفتوحات الإسلامية من جديد، بعد أن كانت هذه الفتوحات قد توقفت فى عهد الإمام على، لأن هذا العهد كان عصر صراع دائم بين على ومعاوية من جهة، وبين على والخوارج من جهة أخرى.

كانت الفتوحات فى عهد معاوية بن أبى سفيان فتوحات كاسحة، امتدت لمجابهة الدولة البيزنطية من جهة، واستطاع من جهة أخرى أن يمد سلطانه الى جزر البحر الأبيض المتوسط بالإغارة على صقلية ورودس، ومهاجمة القسطنطينية، ودعموا الحكم الإسلامى حتى ضفاف نهر السند، بجانب الزحف للسيطرة على الشمال الأفريقى كله.

كل هذه الانتصارات قد حدثت فى الوقت الذى كانت هناك أخطار من يتربصون بالدولة الأموية، ويحاولون زعزعة نظام الحكم، وخلق جو متوتر للقضاء على الخلافة الأموية.

ومن هنا برز دور حكام الأقاليم فى قمع هذه الثورات المضادة، وكان زياد بن أبيه أو ابن أبى سفيان حائط الصد للحركات المضادة للدولة الأموية.

والرواة يقولون إن الحارث بن كلدة الثقفى كانت له جاريه تدعى سمين وقد تزوجت عبدا روميا اسمه (عبيدا) فأنجبت له

زيادا، وكان زياد فصيحا، بليغا، يجيد الخطابة، ولا يمل السامع من خطبه التى اشتهرت بالفصاحة، وحسن اختيار الألفاظ.

وقد ولد زياد فى السنة الأولى من الهجرة، وعرف القراءة والكتابة، واستوعب شعر الشعراء فى الجاهلية وفى صدر الإسلام، واكتسب بذلك مهارة لغوية جعلت (الشعبى) يقول عنه:

«ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أن أحببت أن يسكت خوفا أن يسيء، إلا زيادا، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما».

وقد بدأ يصعد فى عالم الشهرة عندما اتخذه كاتبا له «المغيرة بن شعبة»، ثم صحب أبو موسى الأشعرى عندما تولى أمر البصرة، وكان عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يستعين به فى بعض الأمور.

ويقول الرواة أنه خطب يوما الناس عندما أمَّره أمير المؤمنين أن يقوم بمهمة معينة، وأراد أن يخبر الناس بها، فخطب الناس خطبة رائعة، حتى أن عمرو بن العاص من فرط إعجابه به قال:

– لله هذا الغلام، لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه!.

وأعجب به الحاضرون من المهاجرين والأنصار، ومن فرط إعجاب الناس بفصاحته، همس أبو سفيان فى أذن على بن أبى طالب، بأنه والد هذا الشاب، وعندما سأله على بن أبى طالب.

– فما يمنعك أن تدعيه؟

قال أبو سفيان:

– أخشى هذا الجالس (يقصد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب) أن يخرق علىّ إهمالى.

وعندما تولى على بن أبى طالب الخلافة، عين ابن عباس واليا على البصرة، وطلب منه أن يستعين بزياد، وأن يتولى الخراج وبيت المال.

وحدث أن نقل عامل الإمام على على بلاد فارس، واشتعلت بها الفتنة، فأمر الخليفة زيادا أن يتولى وأد هذه الفتنة، ونجح ابن زياد فى ذلك.

وكان معاوية يعرف بكل ما يقوم به الإمام على وعماله فى مختلف الأقطار، وكان معاوية يحكم الشام، ولم يعترف بخلافة الإمام على وقامت بينهما الحروب، التى انتهت بأن رفعت جيوش معاوية المصاحف على أسنة الرماح طلبا لتحكيم القرآن الكريم، وكانت لجنة التحكيم الذى أناب فيها معاوية عمرو بن العاص، وأناب الإمام أبا موسى الأشعرى، وانتهت حكاية التحكيم بأن خلع أبو موسى الأشعرى الإمام، وقام عمرو بن العاص بتثبت صاحبه، واندلعت الحرب من جديد!

ولقد حاول معاوية أن يستميل إليه زياد ويغريه حينا، ويهدده أحيانا أخرى، حتى أن زيادا خطب الناس قائلا:

– يا عجبا كل العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق.. يتهددنى ويخوفنى بقصده إياى، وبينه وبين ابن عم رسول الله ﷺ فى سبعين ألفا من المهاجرين والأنصار يحملون سيوفهم على عواتقهم.

أما والله لئن خلص الىّ ليجدنى أحمر مَخشيًّا ضرَّابا بالسيف».

وتطورت الأحداث..

واستشهد الإمام على بن أبى طالب على يد عبد الرحمن بن ملجم بتحريض من الخوارج، وصفا الجو لمعاوية، فأراد أن يضم إليه زياد، والذى كان يخشى وجوده على أرض فارس فطلب معاوية من المغيرة بن شعبة أن يقنع زيادا بأن ينضم إلى معاوية فى الشام، على أن يلحقه بنسب أبيه، ومن هنا أصبح يسمى زياد بن معاوية.

وفى عهد معاوية تولى البصرة وخراسان وسجستان، والبحرين وعمان، وضم إليه الكوفة.

وحدث أن شبت الفتن فى البصرة فقابلها زياد بالشدة والعنف حتى هابه الناس.

وفى أول خطبة له فى البصرة، لم يبدأها كما تعود الناس بحمد الله، فسميت هذه الخطبة البتراء، وفيها توعد الناس الذين يخرجون عن طاعة الحاكم، وأمر الناس بعدم الخروج ليلا.

قال فى هذه الخطبة:

إن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغى الموفى بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه جثماؤكم من الأمور العظام وينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول.

إنه ليس منكم إلا من طرقت عينه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه».

وأخذ يصور لهم ما يراه قد انحرفوا إليه، وأنهم عليهم الإنصات لما يقول، وكأن حديثه هذا حيثيات حكمه، وأخذهم بالشدة والقسوة، وتهديدهم بسوء المصير، إنه يتابع خطبته بقوله:

«ما هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر، والعدد غير قليل.

ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟

حرام علىَّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا.

ويتحدث عن خطته لمحاربة الفساد والقضاء عليه فيقول:

إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله:

لين فى غير ضعف، وشدة فى غير عنف.

وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى، والقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصى، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول:

«انجُ سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لى قناتكم».

وأخذ يهدد الناس ويتوعدهم بعقاب لم يألفوه، ولا عرفوه، ولا نادى به أحد من من الخلفاء الراشدين، فليس فى الإسلام أن يعاقب إنسان على ذنب لم يرتكبه، ولكن ارتكبه جاره..أو صاحبه، فالإنسان مسئول عن نفسه عما يرتكبه من آثام، أو ما يقوم به من خير، فما معنى أن يقول أحدهم للآخر: «انجُ سعد فقد هلك سعيد».

وهل هناك إرهاب أسوأ من هذا الإرهاب؟!

لقد قال لهم أيضا فى هذه الخطبة البتراء:

«وقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة:

فمن غرَّق قوما أغرقناه.

ومن أحرق قوما أحرقناه.

ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه.

ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى».

وبعد أن طلب منهم الإذعان للحاكم، وعدم التمرد عليه، وعدم عصيان أوامره، ولكنه وعدهم أنه سيكون عادلا بين الناس!.

وختم خطبته بالتهديد مرة أخرى:

– وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى!.

وقد اعترض عليه أحد الخوارج، وقال أن خطابه يخالف ما أمر الله به، وتلا قوله تعالى:

«ألا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى».

وقال له:

وأنت تزعم أنك تأخذ البريء بالسقيم، والمطيع بالعاصى، والمقبل بالمدبر؟!

وعاد زياد إلى المنبر وكأنه يريد أن يطمئن الناس بعد أن بث فيهم الخوف والرعب، وبأنه يوصيهم باحترام الشريف، والعالم والشيخ، وعاد للتهديد بأنه من يتعرض لهؤلاء الناس، سوف يلقى انتقامه وتعذيبه.

وعندما تولى حكم الكوفة، سادها بالقهر، حتى كرهه الناس، رغم أنه خطيب بارع، ولديه قدرة على الإقناع.

ولكن الناس فى كل العصور لا يحبون البطش والطغيان والجبروت، ولا يحبون من يسوسهم بالسيف، ومن يسومهم سوء العذاب، حتى لو كان قصده من وراء هذه الشدة

استتاب الأمن، والحفاظ على النظام، ونشر العدل..!.

إن الناس يرون أن يساسوا بالعدل، وبما شرعه الله، ولا يؤخذ إنسان بجريرة آخر، وأن يكون الحاكم نفسه قدوة ومثالا فى عدله ورحمته برعيته، وتوفير حياة كريمة لهم، حتى لا ينحرفوا عن الطريق المستقيم.

وكان زياد داهية من دهاة العرب، ليس عنده مشكلة إلا ولها حل، ولكن قسوته أبعدت الناس عنه وكرهه الناس.

ويقول الرواة إن نهايته كانت مأساوية، فقد أصيب بالطاعون فى يده، وأشار عليه الأطباء ببترها، ولكنه رفض ذلك ومات سنة ٥٣ هـ.

وعلى كل حال فربما نجد لمثل زياد العذر، بعض العذر فيما أخذ به الناس من عنف وقهر، فالدولة الأموية التى ينتمى إليها كانت تريد استقرار الأمور، وخاصة أنها عادت للفتوحات الإسلامية التى بدأت مع الخلافة الراشدة فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان، وتوقفت فى خلافة الإمام على، الذى قضى فترة خلافته فى صراع بينه وبين معاوية من جهة، وبينه وبين الخوارج من جهة أخرى.

وخشيت الخلافة الأموية فى عهد مؤسسها معاوية بن أبى سفيان، أن تعيد أمجاد الفتوحات الإسلامية، وأن تنطلق فى أسيا، وفى الشمال الإفريقى رافعة راية الإسلام، ومبشرة بالحضارة الإسلامية التى فتحت ذراعيها للعلم، وإن كان العلم

هنا يخص العلوم المتعلقة بتفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ولم تتعداها إلى العلوم الدنيوية كما حدث بعد ذلك في العصر العباسي، حيث انفتحت حضارة الإسلام على الحضارات الأخرى: اليونانية، الفارسية، والهندية، والمصرية، وكونت من هذا المزيج ثقافة رائعة، وحضارة تعمل للحياة كما تعمل في نفس الوقت للآخرة.

فكان همهم هو الأخذ بالشدة، حتى يتمكنوا من بناء دولتهم الأموية القوية، بالقضاء على الفتن والمؤامرات، فلجأ بعض ولاتهم للقسوة، وتمادوا فيها، حتى خرجت عن المألوف، ومن هنا كانت كراهية الناس لهؤلاء الولاة، رغم ما قاموا به من إصلاحات.

obeikandl.com